وجه فى الظلام

ميدو روبيرت اوستيس

(نشرت لأول مرة ١٩٠٣ م)

إنني رجل أعزب، ولدي من الموارد ما يكفيني لأستمتع بحياتي، فأمارس هوايتي بالآداب بالكتابة للصحف في المناسبات، وأقوم بالتقاط أفضل الصور الفوتوغرافية لمن يرغب من الأصدقاء. لا أجد بنفسي رغبة بالزواج في الوقت الحالي، وعموما فأنا شخص غير اجتماعي، وأحب أصدقائي القليلين. أدعى لورنس هين، وعمري اثنان وثلاثون عاما.

وفي هذه الأيام العصيبة ليس بمقدور المرء الهروب من مواجهة الحياة بكل ما فيها من متاعب. وأنا كغيري، خضت غمار الحياة بمآسيها وآلامها، وما سأرويه الآن ليس أغرب شيء مر بي.

ففي اليوم الثامن عشر من حزيران، ذهبت لاستقبال بعض الأصدقاء من عائلة (سيتويلز) الذي يقطنون في ساحة (بيركيلي)، وكان هذا من الوجبات المحببة إلى حد كبير.

بالمناسبة، كان لي صديق شاب يدعى (غرانبي مانارز) أتمنى لو ألتقي به مرة أخرى. كنت أعرفه جيدا، كانت أمه من الصديقات الغاليات العزيزات إلي فأوليته اهتماما، فهو شخص كريم ودود ذكي، ولكنه عصبي المزاج لدرجة تستطيع عصبيته إعاقة أفكاره النبيلة الطموحة، أمر بالخروج

من مسكنه تحت رعاية مربية عندما كان في السابعة عشرة من عمره. كانت السيدة (مانارز) بمثابة أخت كبرى لي، ساعدتني أكثر من مرة بشكل عملي إلى جانب الإرشاد والنصح.

وقد أوصتني بـ (غرانبي) والعناية به عندما كانت ممددة على سرير موتها، وهذا ما يدفعني لمعاملته وخدمته دون تردد ما وسعني ذلك.

قالت لي: "لا يغب عن بالك يا لورنس أنه أصغر منك بعشرة سنوات، ولا علم له بالحياة الإنكليزية، ولا بد أن تحيق به المخاطر بعد موتي، فساعده ما استطعت"، وأعطيتها العهد بأن أقدم له العون ما وسعني ذلك.

وقد حان الوقت الآن، وأصبح وحيدا على الساحة بعد وفاة والديه، وآلت جميع ممتلكات (كروفتوود) إلى الصبي، وعاد إلى البيت ليتدبر شؤون العمل هناك.

تلقيت رسالة من السيدة (ويلوبي) خالة غرانبي القاطنة في اسكوتلاندة يوم حفلة (سيتويلز) قالت فيها "إن ابن أختي في لندن، أجوك حاول أن تجده وتساعده فهو صبي غريب وليس أهلا لإدارة ثروة كبيرة مثل قاعدة كروفتوود. أرجوك ابذل ما بوسعك وأخبرني"

وبناء على ذلك ذهبت إلى (سيتويلز) للبحث عن الشاب (مانارز).. وصلت في الوقت المناسب، فالمنزل ملئ بالضيوف، توجهت

تحدوني السرعة لمقابلة غرانبي مانارز. كان ذا وجه مشرق ومظهر أنيق وأسلوب رشيق.

أخبرني بأنه سعيد برؤيتي؛ فقد ذكرته بالأيام الخالية، وأخذ بيدي نحو غرفته لنتجاذب أطراف الحديث. خرجنا إلى شرفة مفتوحة فيها بعض الكراسي. قلت: "تبدو رجلا يا غرانبي، وقد أصبحت في الثانية والعشرين من العمر، ويجب أن تكون يداك منهكة بالعمل الآن يا ولدي بتلك الثروة الكبيرة"

أجاب: "في الحقيقة إنني على عجلة من أمري، كما أجد صعوبة في العناية بها. أريد أن أراك في أي وقت تشاء".. قلت فجأة وقد لمست نبرة عصبية في صوته وهو يتكلم، مصاحبة بحركة سريعة متوترة من راسه: "ها هنا كرسيان.. اجلس يا عزيزي، فيبدو أن لديك الكثير تود قوله".

أجاب: "حسنا لدي حديث طويل. لقد ترك والدي أمورا معقدة، بدات تتحلحل شيئا فشيئا.. ماذا أقول؟..." "تنازعني مشاعر الخوف والأمل، ولكنني مصمم على تحديد يوم الثامن عشر، لا بد لي من معرفة ذلك قبل مضي اليوم الرابع والعشرين من هذا الشهر".

سألته بدهشة: "ما الذي تعنيه بذلك؟"

أجاب: "سأخبرك عندما أستطيع أن أجد الوقت المناسب الهادئ، فأنا لا أستطيع أن أنبس بكلمة في هذا الزحام"، واستدار خلفه بنظرة خاطفة واجفة.

دعوته الي العشاء مساء الغد، فأشرق وجهه بالسرور، وكان على وشك أن يجيب بالقبول عندما اقتربت منا فتاتان أنيقتان غريبتان عني تماما، بدا أن غرانبي يعرفهما، فقد فاض وجهه بالحيوية، وظهرت السعادة والفرحة في عينيه ورحب بهما وخاصة بالأصغر والأكثر رشاقة، بعاطفة حارة.

قال: "حسنا، لقد كنت أتحدث لتوي مع صديق حميم واسمحا لي بتقديمكما إليه".

وبعد دقيقة كنت أصافح أروع فتاة في إنكترا كلها. اسمها أنجيلا ديكنسون، ابنة محام مشهور جدا. جاءت بمفردها لمقابلة مانارز فهما صديقان حميمان، تقابلا في الخارج.. تبادلا الابتسام والتحية، وانتحيا جانبا. وجلست الفتاة الأخرى، واسمها موريل لتشاركني الضيافة. قالت:

"إنني سعيدة جدا أن السيد مانارز بصحة جيدة؛ فقد كان مضطربا جدا عندما رأيناه في (نابولي)، إنني أشعر بالارتياح والاطمئنان لأنه قابل صديقا عزيزا مثلك".

أجبتها: "نعم، عرفت غرانبي منذ صغره، كانت والدته من أعز أصدقائي، مر بطفولة حزينة، وأظن أن الجميع على علم بوضع والده

(حيث كانت هناك إشاعات عن أعمال غامضة رذيلة قام بها، كما أدلى بعضهم بأنه كان نصف مجنون، لكنه ميت الآن".

أومات برأسها، ونظرت بحزن، بينما تابعت حديثي:

"أتوقع أن عيب مانارز الوحيد شدة حساسيته".

أجابت: "نعم"، واتبعت نظراتها نحو صديقتها، وهما يقفان معا عند طرف الشرفة الآخر. إن إعجابهما ببعضهما ملحوظ إلا أن مانارز لم يتقدم لخطبة أنجيلا بشكل رسمي"

استأذنت بعد ذلك، وتوجهت نحو المنزل للقيام ببعض الأعمال التي شغلتني تلك الليلة فاعترضني الشاب (مانارز) قائلا:

"هل أستطيع المجئ الليلة عوضا عن ليلة الغد؟ ولا داعي للعشاء فإنني أريد التحدث معك"

طلبت منه أن يزورني الساعة التاسعة تقريبا، فأومأ بالقبول.. وصل في الساعة المحددة مرتديا لباسا أنيقا. قدمت له غليونا وجلسنا ندخن بصمت دقيقة أو أكثر.

قلت فجاة – حين شعرت أن علي بدء الحديث – "لقد راودتني بعض المخاوف عندما كنا في الشرفة، لكن الآنسة ديكنسون بددت مخاوفي، وأهنئك يا مانارز من صميم قلبي على ذلك الاختيار" ضغط على يدي لكنه لم يتكلم، ثم تابعت بعد هنيهة:

- "أتوقع أن تعلن الخطوبة في أسرع وقت"..

- "نحن لسنا مخطوبين رسميا. إذا حدث ذلك فسأقوم بنشر الخبر في العالم كله لولا وجود صعوبات كثيرة ورهيبة تتعلق بمن سأحدثك عنهم"

- "حسنا تكلم يا بني، فكلي آذان صاغية، لا بد أن نصل معا إلى حل مناسب".

قرب كرسيه مني وابتدرني بالسؤال:

- "متي كنت آخر مرة في كروفتوود؟"

- "منذ وفاة والدتك. لقد تركت المكان مظلما وبإمكاننا إعداده بشكل أفضل، بتجديد البناء وتزيينه وقطع الأشجار لتهوية المنزل بشكل أفضل، فلا يبقى بذلك المنظر المزدحم، وأنا متأكد من أن أنجيلا هي الفتاه المناسبة والتي ستسعدك في ذلك المكان"

- "لا أخفيك حبي لهذا المكان بعينه فهو منزل عائلتي منذ مئات السنين إلى جانب خوفي منه واضطرابي فيه.. هل سمعت بشيء كهذا؟"

أجبت متحيرا من لهجته: "لا"

- "كان هذا منذ زمن بعيد، كان والدي في الخارج بينما كان يتوجب على والدتي الذهاب للبحر طلبا للاستشفاء، وكما تعلم فالبيت قديم جدا وغالبا ما يكون مسكونا بالأشباح، لهذا سافرت وتركت البيت"

أجبت بحرارة:

- "نعم، فمعظم الأماكن القديمة كذلك، ولكن التحدث عن الأشباح في هذا الوقت يعد ضربا من الجنون أو الهراء".

قال بارتعاش:

- "يؤمن بعض الناس بوجودها.. حسنا دعني أخبرك. لقد أرادت أمي اصطحابي معها ولكن والدي رفض، كم كان غبيا!!".

- "اصمت.. إنه ميت".

- "سأقول الحقيقة سواء أكان ميتا أم حيا. إنه غبي. أكرهه وأقدس أمي؛ فقد أصبحت وحيدا بعدها. كنت ولدا كبيرا في الخامسة عشرة وفي ذلك الوقت بكيت على نفسي، إذ كان البيت وحيدا مرعبا، خاليا إلا من خادمين فقط، تارينغ العجوز وهو كبير الخدم وما زال حتى الآن، والطباخ.. أغلقت نصف الغرف، مرت الأيام عصيبة والأمسيات طويلة مملة.. لم يكن لدي أي كتاب للقراءة، فقد أقفل والدي المكتبة، ولا صديق أتحدث إليه، وكان هذا كله سببا كافيا لفرط حساسيتي وفقداني النوم. صار من عادتي أن أتجول في البيت القديم منتصف الليل، وذات ليلة كنت متعبا جدا لدرجة لم أستطع تناول العشاء.

تملكتني نوبة من القلق والوهم فأصبحت أتخيل أشياء أنى نظرت. عندما رجوت تارينغ أن يبقى بصحبتي، كما تعرفه طبعا، فهو رجل مسن منحن، ذو أنف معقوف كالمنقار. أتاني مرة في غرفتي ووجه إلي الكلام قائلا: "سيدي غرانبي، إذا استمر بك الحال هكذا فستصير مجنونا لا محالة" سالته برعب: "ماذا تعني؟" أجاب: "أخشى عليك من الجنون، فلا تنس أن الجنون شيء متأصل في العائلة.. أتذكر عمك ذاك الرجل الأنيق العظيم المعلقة صورته في المكتبة؟ كن حذرا، إن شابا في مثل مركزك ينبغي أن يكون سعيدا يأكل بشهية وينام بهدوء.. اسمع نصيحتي يا سيدي، ولا تشغل بالك بالخيالات والأوهام، وإلا فسوف يفلت الزمام من يديك"

خرج بعدها رافضا البقاء معي بحجة أن وجهي يوحي بالكآبة، وهو يفضل صحبة الطباخ في المطبخ. ظننت انه بمقدوري أن أرمي حزني وأنام، غطيت نفسي، لكن دون جدوي. هل تتذكر صورة المدخل (البهو) في كروفتوود يا هين؟".. أجبته: "طبعا إنها أرض تحتل الجناح الغربي من المنزل، تتصل بالكنيسة من طرف، وبقاعة الطعام من الطرف الآخر. اضطجعت غير أن عيني ظلتا مفتوحتين وقلبي يدق كمطرقة، وأفكاري تدور حول عمي المجنون.

تذكرت فجاة أن اسمه (غرانبي مانارز)، وراودتني رغبة لا تقاوم بالنظر إليه؛ فانتصبت واقفا وأمسكت بالشمعة في يدي. نزلت إلى

المنزل القديم ووقفت في البهو حيث الفتحات العميقة قرب النافذة ذات الأعمدة.

وما أن اقتربت من الصورة الموجودة في نهاية البهو قرب الكنيسة، حتي رأيت شخصا واقفا في الظلام يرتدي الملابس السوداء، واضعا القلنسوة على رأسه، ثم تلاشى أمامي كل شيء فوليت الأدبار هاربا، إلا أن المنظر ظل ماثلا في ذكراتي بوضوح، وكأنه حدث البارحة بعد أن أدلى إلي بقوله: "غرانبي مانارز!! ستموت في هذه الغرفة" وكان مادا يديه إلي.

جذب صراخي الرجل العجوز (تارينغ) فنقلني إلى غرفة نومي واستدعى الطبيب.

قضيت عدة أسابيع في الفراش بسبب حمى أصابت رأسي. تحسنت صحة والدتي وعادت إلى المنزل فأخبرتها بما رأيت كانت مفعمة بالحنان فما كان منها إلا أن أرسلتني للخارج برفقة مرشد، وصرنا نتنقل من مكان إلى آخر حتى نسيت قلقي واستعدت قوتي ثانية إلى أن وصلني النبأ المزعج بوفاة والدتي – هذا يعني أنني لن أرى حبيبتي مرة أخرى – فهويت على الأرض وصممت ألا أعود إلى إنكترا لولا الدعوة التي وصلتني بعد وفاتها بأسبوعين من المحامين يلحون علي بضرورة عودتي، لأتمكن من إدارة الثروة التي آلت إلي.

سألته: "وهل رويت هذه القصة الغريبة للآنسة ديكنسون؟"

- نعم، إنها علي علم بكل شيء إذ ليس بإمكاننا إعلان الخطوبة ما لم يتوضح كل شيء وإلا فسأضطر للابتعاد عنها، ولو كان صعبا علي، فليس بمقدوري التقدم لخطوبة فتاة لا أستطيع إعالتها".

قلت: "هذا محض هراء تمتلك قاعة كروفتوود، هذا يعني أنك ذو أموال طائلة".

أجاب: "هذه مشكلتي بعينها يا هين فهناك تعقيدات كثيرة تحوم حول الثروة سأسردها عليك قريبا، وبما أننا نتحدث عن الأوهام والتخيلات، فاسمح لي أن أحدثك بشيء آخر: سمعت طبعا عن شجرة الدردار في كروفتوود!"

أومأت برأسي: "هناك خرافة حولها منذ القدم تقول أن غصنا من هذه الشجرة يسقط دائما قبل وفاة صاحب المنزل". كنت في كروفتوود الأسبوع الماضي، وراعني منظر المزارعين يرمون بالغصن الكبير الذي سقط من الشجرة قبل وفاة والدي بيومين.

قلت: "حسنا لا تفكر بذلك فهي لا تعدو أكثر من كونها مصادفة؛ فالرياح العظيمة تقتلع الأغصان من الأشجار القديمة.. أليس كذلك يا مانارز؟ إنني أشعر بالخجل لاعتقادك تلك الخرافات، ولكن أخبرني بربك متى ستعود إلى كروفتوود مرة أخرى؟"

– "غدا"

– ماذا؟ غدا؟ هل تأذن لي بمرافقتك؟

قال: "حقا ستأتي معي؟!!"

تهلل وجهه بالسعادة وتلفظ بعبارات الغبطة والارتياح.

- سيكون بولتيمور هناك إنه رجل مخيف، ترهن عنده الممتلكات

صرخت به: "وهل سترهن (قاعة كروفتوود)"

- "نعم، سترهن القاعة بما فيها، إنني جاد فلا أحب أن أكون فقيرا"

ثم قام واستاذن بالانصراف مباشرة وقال على عجل: "سأخبرك بكل شيء غدا".

قابلت الصبي غرانبي في (ووترلو) اليوم التالي وصلنا إلى كروفتوود بعد الساعة السادسة، كان يوما مشرقا معتدلا، قدنا العربة عبر الحديقة ذات الأشجار الصيفية الخضراء فداخلتني ذكريات كثيرة.

وقفت العربة عند الشرفة حيث كان كبير الخدم (تارينغ) بانتظارنا، لم أر رجلا عجوزا منحني الظهر بهذا الشكل، كان له أنف معقوف، وأظافر كالمخالب، فبدا لي أشبه ما يكون بطائر النحس (الغراب) رمقنا بنظرات حادة من عينين ثاقبتين كالإبر.

ومع أن الأيام نالت من شكل تارينغ الخارجي إلا أنه مازال متمتعا بقواه العقلية.

سأله مانارز: "هل هناك رسائل أم لا؟" أجاب الخد: "لم يأت البريد بعد يا سيدي"

"حسنا يا تارينغ، فالسيد هين جاء ليبقى معي. جهز الغرفة له والآن يا هين دعنا نتجول قبل العشاء.. ألا يبدو المكان جميلا؟"

بالمناسبة لم تلتق بعد بالسيد بولتيمور أنه صديق حميم لوالدي سأخبرك إلى أين وصلت بي الأمور بل رؤيتك له"

تجولنا خلال الحدائق وحدثني غرانبي:

"إن الوضع أسوأ مما تتوقع لا أحد يعلم بالضبط كيف كانت حياة والدي، ولكن مما لا شك فيه أنه ظفر إحدى الليالي – عندما كان في لندن – بقضية معقدة للغاية وكان من الضروري حصوله علي عشرين ألف ليرة، تلك الليلة، وإلا فإنه سينتحر حصل على المبلغ بطريقة ما من السيد بولتمور – تاجر الجواهر في المدينة – مقابل رهن كروفتوود، بذلك ضمن السيد بولتيمور أمواله. كان على والدي أن يدفع ١٠ % فائدة على القرض، وقد بلغت الفوائد المترتبة حتى الآن عشرة آلاف ليرة يجب دفعها نهار عيد ميلاد يوحنا وإلا – حسب قانون الرهن – فمن حق بولتيمور الاستيلاء على الممتلكات التي لا يقل ثمنها عن مائة ألف ليرة، وهناك ناحية أخرى لم ألفت نظرك إليها، وهي أن الفائدة لو دفعت بانتظام فلن يتبقى لي سوى مكان أعيش فيه، ويؤول كل شيء ملكا لبولتيمور وورثته، بينما يحرم أولادي من كل شيء بعد وفاتي انظر في أي ظروف أريد أن أنتقم لأنجيلا لتكون زوجة لي".

سألته: "أليس هناك وسيلة للحصول على النقود؟"

أجاب: "لا، اشتركت مرة ببعض الأسهم في منجم ذهب ولا ريب أنها ستدر علي ربحا وفيرا في وقت ما ولكنني لا أتخيل أن أحدا سيقف جانبي مادا لي يد العون".

أجبت "أرى أن من مصلحة بولتيمور ألا تقدر على دفع الحساب يوم ميلاد يوحنا لأنه سيمتلك مكانا يعادل مائة ألف ليرة مقابل عشرين ألف ليرة"

أوصلنا تجوالنا إلى شجرة الدردار القديمة وصرخ مانارز:

"آه.. انظر بنفسك، فهنا وقع الغصن قبل وفاة والدي"

مشينا على الأعشاب باتجاه الشجرة وقفنا تحت الشجرة تماما، وانحنى الغصن الكبير حتى كاد يلامس أقدامنا. شحب وجه غرانبي وصرخ:

"غصن مقطوع.. غصن آخر، ماذا يعني هذا؟!"

قلت: "ليس أكثر من عاصفة قوية".

أجاب بسرعة: "ألا تعرف أن غصن شجرة الدردار يسقط دائما قبل موت صاحبها وأنا صاحبها الحالي! فإلى ماذا يشير ذلك؟!"

"هلم إلي، ولا تكن سخيفا... وقبل أن أتم جملتي، ارتفع صوت عال بين الأشجار رنوت ببصري لأستطلع القادم فإذا به شخص طويل القامة قوي البنية يقترب منا بسرعة.

هتف: "أهلا غرانبي، هلا تفضلت.. تبدو متوعك الصحة ذا لون باهت فما الأمر؟"

"لا شيء، شكرا لك دعني أقدم لك صديقي السيد لورانس هين، السيد بولتيمور".

رفع بولتيمور قبعته فكشف عن وجه كريه قبيح لم أر شبيها له من قبل، نظر إلي بازدراء ثم التفت إلى الشاب غرانبي وسأله بحدة: "هل سيقيم صديقك هنا؟"

أجاب غرانبي بصوت منخفض: "بالتاكيد إنه ضيفي"

ضحك بولتيمور بسخرية: "ضيفك! حقا هل وصلتاك الرسالة؟"

"لا، ربما تصل في البريد المسائي"

قال بولتيمور: "إنه لن يصيبك القلق بعد أن تستمع ذلك؟"

رمقني عابسا، واستدرنا متوجهين نحو البيت.

وعندما كنا نلج الباب اقترب تارينغ وقدم لـ "مانارز" رسالة في ظرف أزرق هتف مانارز: "آه ها هي"

تنحى جانبا، وكانت أصابعه ترتجف، راقبه بولتيمور، بسعادة غامرة وسال من فوره: "حسنا ما الأخبار؟".. قال غرانبي: "أخبار سعيدة لك سيد بولتيمور، لا حاجة للكتمان"، ثم إلي ثم إلى الرجل الآخر". وقال: "لا يمكنني دفع الدين وسيكون المنزل منزلك بعد أربعة أيام".. رفع

بولتيمور يده وخبط على فخده بقوة ثم قال: "مع أسفي الشديد لوضعك يا مانارز، إلا أنني لا أستطيع إخفاء سعادتي، لا بأس عليك يا سيد هين، ولكنني سأختار ضيوفي المنتخبين عندما تؤول الثروة إلي.. أتفهم يا سيدي؟! سأغادر الآن إلى القرية، فلا تنتظرني على العشاء"

غادر المكان بخطى سريعة، وأغلق الباب الثقيل وراءه. استدار مانارز نحوي وقال: "يا له من وغد!! ولكن على رسلك يا هين من أجلي".

"يا غلامي العزيز، إن بولتيمور لا يهمني إلا بما يتعلق بك من أمور.. أرني تلك الرسالة".

"لا اعتقد انه سيحدث أسوأ من ذلك".

ثم أعطاني الرسالة وقرأت محتوياتها كما يلي:

"سيدي العزيز: نأسف أن نخبرك بعدم القدرة علي دفع المبلغ، لن يتمكن شركاؤك من مد يد العون لك. وستنتقل الثروة الى بولتيمور – نهار عيد يوحنا".

صرخت: "سنجد وسيلة لمنع ذلك بالتأكيد"، ولكن كيف له ذلك وهو لا يمتلك أيه خبرة في إدارة العمال؟!.

أمضيت تلك الأمسية بالتفكير المكثف، إلى أن خطرت لي فكرة استشارة السيد ديكنسون والد أنجيلا، وقررت إخبار غرانبى بذلك الحل

الذي خطر لي. فقلت: "إنك بحاجة لصديق في هذه الفترة، لو كنت أملك مبلغا كهذا لأقرضتك إياه بكل رضى، فما رأيك بذهابنا إلى لندن غدا واستشارة السيد ديكنسون والد أنجيلا؟"

صرخ: "ماذا؟ والد انجيلا...؟"

"هو بعينه".

بدا غير مرتاح للفكرة وأخذ يجول في الغرفة، ثم قال: "لن تخبره عن والدي بالتأكيد"

"والدك.. عليك أن تترك ذلك لي، ومهما تطورت الأمور فلن يكون الوضع أسوأ من هذا ومن المستحيل أن يحتقرك ديكنسون بسبب ابنته".

غطى المسكين وجهه بيده وتأوه، قلت: "سأبذل قصارى جهدي في الصباح، أما الآن فاجلس هنا وانتظر الأحداث".

شعرت بالأسف على عدم اصطحابي إياه. لكن كيف لي أن أتنبأ بالمصير الرهيب.

وصلت المنزل بعد الساعة الحادية عشرة، واتصلت بديكنسون ليأذن لي بزيارته؛ فوافق، وزرته بعد العصر في منزله.

دعاني والد أنجيلا لتناول الغذاء معه وأثناء الغذاء، أخبرته بكل النقاط المهمة من الأحداث. وبعد أن استمع إلى القصة، اعتدل في جلسته وقال: "هل ذكرت لي القصة كلها؟.. هل أخفيت شيئا؟" وهنا

قلت له: "هناك شيء واحد لم أذكره لك، وهو أن السيد مانرز يحب ابنتك أنجيلا بصدق، ويأمل أن يكون بالنسبة لها ذلك الزوج الطيب والمستقيم".

قال ديكنسون: "سأستشير المحامي الخاص بي. وأريد منك أن تذهب للسيد ووينتج، ليس هناك وقت، يمكنك أن تشرح له الأمور.. يجب أن لا نضيع دقيقة واحدة، إن الموعد المحدد صار قريبا جدا، ولا يفصلنا عنه سوى أربعة أيام، واذا انصرف قبل الموعد فسيحدث الشيء الذي نخشاه وستضيع الثروة".

كان ووينتج مشغولا في أعماله، وهو رجل نشيط حقا وعندما تراه في عمله تظن أنه ليس رجلا واحدا، بل عدة رجال يعملون، وعندما قابلته لأول مرة أعطاني موعدا للقاء في اليوم التالي. جئت اليه في اليوم التالي، ولم أستغرب أنه درس الموضوع، بل عمل تحريات عن وضع بولتيمور من الناحية المالية، ودرس حالة رصيده المالي، ولخص الأمر في نقطة واحدة: (يجب أن ندفع الشيك قبل حلول الموعد النهائي، وإلا ضاع كل شيء) قرر صاحبنا أن يعطيني الشيك، وأنا بدوري سأوصله إلى بولتيمور. وأستلم منه المستندات في المقابل.. وهكذا جلسنا سويا لنرتب الأمور، وشعرت أن الغمة قد انزات عن صدري، وأن الأزمة أوشكت على الانفراج.

عدت أدراجي إلى المنزل، وأخذت أستنشق الهواء العليل بسعادة غامرة. كنت في تلك اللحظة أشعر بالسعادة الغامرة، لذلك راودتني فكرة

إرسال برقية إلى غرانبي كي يشعر بالابتهاج ويطمئن على سلامة سير الأمور، وبالفعل أرسلت إليه قائلا: (لقد تم تامين النقود – سننزل مع المحامي غدا. التوقيع لورنس هين)

أمضيت الساعات الباقية من ذلك اليوم كالمعتاد، وعندما جلست لتناول طعام العشاء لمعت في رأسي فكرة مرعبة. وقفزت واقفا وأنا في حالة من الذهول لأني ارتكبت خطأ.. وقلت لنفسي:

لقد كان من الخطأ أن أرسل تلك البرقية إلى غرانبي. وأخذت أتصور في ذهني مجرى الأحداث؛ فالبرقية سوف تصل إلى غرانبي، وهو بدوره سيطير من الفرح، وسيخبر بولتيمور، ولذلك سيشعر بولتيمور بالغيظ وخيبة الأمل..

لن يتحمل بولتيمور الخبر الجديد، وهو يتطلع إلى امتلاك كروفتوووود، ولن يسمح لأحد أن يقف بينه وبين تحكقيق هدفه، حتي لو اضطر إلى القتل.

تذكرت الغصن المقطوع، وتذكرت تشاؤم غرانبي وأفكاره حول الموت، وبدا المشهد داكنا جدا في مخيلتي.

يعرف بولتيمور تماما أن موت غرانبي قبل الموعد المحدد سيحقق له مكسبا عظيما، وستؤول الملكية إليه؛ لذلك يجب أن يموت غرانبي قبل ذلك الموعد أي خلال ساعات قليلة.

بدا الوضع مرعبا ويائسا، وأنا طالما حلمت وعملت على مساعدة ذلك الفتى غرانبي، وطالما عملت علة تحريره من المصاعب.. ها أنذا أقرب موعد موته.. إن البرقية – عندما تصله – ستحمل إليه المنية.. يا إلهي.. إن الفتى في وضع مرعب.

فقدت الرغبة في أي شيء، وصار هاجسي الوحيد العثور على وسيلة نقل سريعة كي أصل إلى غرانبي وأكون إلى جانبه في الساعات القادمة، وتمكنت من اللحاق بالقطار، وكانت تلك أسوأ ساعات حياتي. بدا القطار لي – وهو ينطلق بسرعة – كأنه يزحف زحفا، وكنت أشعر لدى وقوفه في المحطات وكأن جبلا يجثم على صدري. وأخيرا وصلت إلى كروفتوود، وكان ذلك في منتصف الليل، ومع ذلك لم أستطع انتظار عربة أو أية وسيلة تقلني إلى البيت، بل انطلقت أمشي، لم يكن يؤنسني سوى القمر الذي يطل من خلف الغيوم.

وصلت أخيرا إلى البيت، ولم ألحظ أي نافذة مضيئة، وعندما فكرت في الموقف هنيهة قررت أن لا أدق الجرس، بل قررت التسلل عبر الشرفة إلى غرفة غرانبي.

وبينما كنت أمشي سريعا نحو البهو، والظلمة تلف المكان، سمعت صوت تنفس عميق.. نعم.. تنفس عميق.. بدأت دقات قلبي تتسارع وتتسارع، توقفت هنا، وبدأت عيناي تعتاد على الظلام المحيط، ويا للهول.. فقد شاهدت وجه إنسان مقابل ساقي.. يا إلهي.. إنه إنسان مشنوق من ساقيه، ولم أستوعب الأمر للوهلة الأولى.

وبعد دقيقة، وربما أقل من الدقيقة، بدأت أستوعب الوضع.. المشنوق هو الفتى غرانبي.. وهو لا يزال على قيد الحياة، ولكنه سيموت حتما لو بقي على هذا الوضع.

وفجاة دخل بولتيمور المتوحش عبر الباب، والشمعة مضاءة في يده، ومن خلفه كان الخادم النذل، وصرخت بأعلى صوتي: "مجرمون.. قتلة.. لن تفلتا من العقاب".

هرب بولتيمور، وجاء الخادم – وهو يرتجف من الرعب – ثم فك الحبال عن قدمي غرانبي الذي احتاج إلى وقت طويل حتى يستعيد وعيه ويتخلص من شحوبه.. وبعد عدة ساعات، صار غرانبي قادرا على رواية الأحداث: "لقد وصلتني برقيتك يا سيد هين، ورآها بولتيمور في يدي، فاندفع نحوي وقرأها، وعندها تحول إلى ثور هائج، ولم أجد وقتا للإفلات منه؛ فقد ساعده الخادم ضدي، وحملاني معا إلى البهو. أظن أنني فقدت الوعي، ثم أفقت لأجد نفسي مقيدا. ثم أنهما علقاني من ساقي إلى السقف. إنه ألم شديد، لا يمكني وصف ذلك الألم.. يا إلهي"

أخبرنا الطبيب أن الموت كان محتما لو طال الأمر، وذلك بسبب الاحتقان الهائل في الدماغ، وأن هذه الطريقة في القتل ماكرة تماما؛ فالموت في هذه الحالة لا يترك أثرا يدل على الفاعل، ولن يستطيع طبيب معرفة طريقة القتل. والآن يقبع بولتيمور والخادم في السجن بانتظار المحاكمة، وربما صدر عليهما الحكم بالأشغال الشاقة.

أما غرانبي، ذلك الفتى المدلل، فقد تعلم الكثير بعد أن خاض تلك التجربة المريرة، وها هو على وشك الزواج بأنجيلا ديكنسون، أما أنا فأشعر بالفرح الغامر، إذ استطعت تقديم خدمة للأصدقاء، وأنقذت ذلك الفتى من ميتة فظيعة.